

بين الصحفي والمجذبات

قفنا هذا الباب لان بعض اخواتنا الصحفيين صرف
غرضنا منه الى غير ماتوخيناه ولاننا كنا قد قصرناه على
النقد وحده . واليوم نعود اليه لنجعله ميداناً نختار فيه
من الصحف والمجلات ما يروق، وننقد ما لا نوافق عليه،
لنكون بذلك اقرب للنصفة، وانفع لقرائنا .

١- مجلة المنار - فاتحة المجلد الثلاثين . مقالة مطولة في ١٦ صفحة من القطع الكبير
بقلم منشي المنار السيد محمد رشيد رضا صاحب التفسير السلفي الاثرى المدنى
العصرى الارشادى الاجتماعى السياسى - نفعا الله بعله وارشاده : آمين .
المقال غير مهور بامضاء ولكنه استنتاجاً من قلم الاستاذ المسلم الكبير ، أحد
اعضاء مؤتمر الخلافة . بل والاصبع الضاغطة على أحد ازرار المؤتمر فى مصر ، لترن
رثاته فى جنات مكة المكرمة . السيد محمد رشيد رضا ، صاحب المنار وتلميذ الاستاذ
الامام ، عليهما من الله السلام . فالمقال فى مفتح المنار وتصدير للسنة الثلاثين من سنى
المجلة التى انفقتها فى جهادها المبرور فى مؤتمر الخلافة وامثال مؤتمر الخلافة وفى
تجهيز كشوف النفقات التى بعثت فى مؤتمر الخلافة ، رحمه الله ورحم زماناً أغائنا
فيه اليد المعروفة ، اليد العليا صاحبة الحول والطول ، وثابت القول ، من مؤتمر الخلافة ،
وقصاع مؤتمر الخلافة ، وشيوخ مؤتمر الخلافة ، فعلى مؤتمر الخلافة الرحمة الواسعة ،
وللسيد محمد رشيد بن رضا السلفى الاثرى المدنى العصرى الارشادى الاجتماعى
السياسى ، الصبر والسلوان .

ليت شعرى من للاسلام بعد أن انحلت روابطه ، وتصدعت قوائمه ، وعملت
فيه يد الاتراك بالهدم ، وسامه الملهدون الحسف والهضم ، وضربت فيه
معاول التخريب يحملها الزنادقة ، والغمت اسسه أيدى الملاحدة ، من للاسلام
وقد تأمر عليه المستشرقون والشرقيون ، وتأرز عليه الساسة والكاتبون . من

للاسلام يسلك يده، يقيم عثرته، وينفض من التراب لفته، الا السيد السلفى الاثرى
المدنى العصرى الارشادى الاجتماعى السياسى محمد رشيد بن رضا، وسيد
عبد العزيز آل سعود ملك نجد والحجاز وملحقتهما، وملحقات ملحقاتهما،
وملحقات ملحقات ملحقاتهما، الى ماشاء الله من الصحارى القاحلة، والى البوادر الماحلة،
والاركان الخراب، التى لا ينطق فيها يوم ولا غراب، عليهما من الله السلام، والتجلة
والتحية والاكرام

ولقد حفز السيد الى كتابه هذا المقال الفاضل الجوانب المملوءة بحرارة الايمان ما رأى من
ما حل الرأى تنشره مجلات الملاحدة، وتذيعه صحف الزنادقة، وقد اختار من هذه المجلات
وأصحابها - صاحب مجلة ومطبعة فى مصر معروف وفى حلب مجلة حديثة مثلها يظهر ان صاحبها
مقلد ينقل اقوال اشهر الكتاب من ملاحدة مصر، وقصائد شيخ ملاحدة العراق وامثالهم
ويثنى عليهم وينوه بأرائهم ولكنه لا يتجرأ على التصريح بكل ما يصرحون به
بامضائه. ومنهم احد محررى الجرائد اليومية المأجورين الذى كتب مقالات فى تقبيح
النصر فى الدستور المصرى على جعل الدين الرسمى للحكومة المصرية الاسلام، وطلب
أن تكون حكومة معطلة (لادينية) ومقالات فى سن قانون مدنى للاحوال
الشخصية، لا يتقيد فيه بشئ من الاحكام الشرعية الاسلامية، وقد كان من اركان
محررى السياسة ويقال إن له صلة وعلاقة ببعض جمعيات اليهود. وأفراد هذه الطبقة
لا يدعون الدين ولا يتمتعون لوصفهم بالتعطيل بل منهم من يفتخر بذلك. -
وهؤلاء عند الاستاذ هم الطبقة الاولى من الملاحدة، وقد وصفهم بقوله - «إنهم
الذين سمعتمهم الترية الافرنجية، وافسدتهم الآراء المسادية، وخنثم الاسراف فى
الشهوات البدنية، - وقد نسى الاستاذ - يرض الله وجهه وأعلى كعبه - أن يضم
اليهم أنصارهم وأنصار أنصارهم، وتلطف فلم ينزل عليهم اللعنة الابدية، ولم يفصلهم
عن حظيرة الاسلام ولم يطردهم من الجنة، وهذا اقصى ما يصل اليه رجل ثقفته
علوم الشرع ونزهه الايمان، عن أن يحتل مركز الديان، فللاستاذ من هؤلاء
جميعاً الشكر والمنة، تنقلها اليه عنهم تطوعاً. ومن رائق آداب الاستاذ انه لم ينعتهم
بسوى انهم المسممون المخنثون. والله إن هذا لمتهى الكرم، وأسمى منازل الادب

والفضيلة . كيف لا والاستاذ من ورثة النبي العربي الامي القائل - « إنما بعثت لأتم مكارم الاخلاق » ؟ .

وما أحلى قول الاستاذ وأسمى أدبه اذ يقول :

« وما ثبت عندنا بالخبر المستفيض ، والخبر الطويل العريض ، أن من أفراد اولئك الملاحدة دعاة للكفر ، وسعاة للصد عن الاسلام ، وأن منهم من يأخذ على ذلك جعلاً من جماعات التبشير النصرانية ومنهم من يتقاضى مكافأة من بعض جماعات اليهود البلشفية أو الصهيونية ومنهم من يخدم الدول الاستعمارية ويأخذ أجره منها ، وأعظم هذه الاجور المناصب والوظائف في البلاد المسيطرة عليها ، ومنهم من لذته في ذلك التشبه ببعض فلاسفة الافرنج وكتابههم الاحرار والحظوة عندهم ، والثناء عليهم في كتبهم وصحفهم وهم لا يثنون إلا من كانوا عوناً لهم على أقوامهم ، (حفظ الله أستاذنا السيد رشيد رضا من مدحهم وحوطه برعايته) .

بل نعوذ الاستاذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر حاسد اذا حسد .

وقد تحفظ الاستاذ في هذا الكلام كل تحفظ فلم يذكر اسماً ولا اشار الى شخص فهو انما يناهز فكرة ويجالده مبدأ ، دفاعاً عن الاسلام وعن حظيرة المسلمين ، حذر ان يجابهه احد هؤلاء الملاحدة وجلهم (مكشوف الوجه) بعلاقته بابن السعود الذي هدم القبور وبعثرها واغتصب الارث القديم من اولاد النبي ، وتربع على عرش الرمال يقطع مفاوزها على الصادر والوارد ، والذاهب والعائد ، ويحجي جباية ملكه من الحادى والبادى ، والرائح والغادى . خشى الاستاذ الحكيم أن يتخذ احد هؤلاء المكره الخبثاء هذه العلاقة التي ظهر فيها الاستاذ بمظهر العبد الرقيق للسيد المطاع ، خدمة منه للاسلام والمسلمين وتطوعاً للدفاع عن الدين الحنيف ، وهو يعتقد من صميم قلبه ان ابن سعود غير جدير منه بهذا الخضوع ، ذريعة لأن يلوكونا بالسنتهم ما تذيعه العامة الجهلاء عن اكياس الذهب وقناطير الفضة التي يدرها ابن سعود على المنار وصاحب المنار اجر دفاعه عنه وعن الاسلام . تعالى الاستاذ عن ذلك علواً كبيراً . وهذا لعمري دليل واضح على أن الاستاذ قد جمع الى حكمة الدين ، لباقة السياسة التي يتطلبها العيش في الدنيا . ابقاه الله واسعده ابد الآبدين ، ودهر الداهرين ، الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

قال الاستاذ لافض فوه :

« وقد أخبرنا من خبر حالهم ، وعاشر رجالهم ، بطرق الدعوة التي يفتنون بها الشبان عن دينهم ، ولا سيما الاذكياء الفصحاء منهم ، وسنينها في مقال آخر . وما بلغنا من امرهم انه لم يكن لهم نظام للدعاية الى عهد غير بعيد ثم وضعوه ، — مرحي . مرحي — ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ اجمعوا امرهم وهم يمكرون . »

قال الاستاذ بلغه الله مناه ، وجعل الجنة مثواه :

« ولما ألفت في مصر جمعية الشبان المسلمين ، عارضوها بتأليف (جمعية الشبان المصريين) لاجل القضاء عليها بدعاية الوطنية ، قبل ان تشب عن الطوق ، وتشب نارها ، فلا يكون لهم بها طوق ، ولكنهم لم يقاوموا جمعية الشبان المسيحيين بقول ولا عمل . بل وجد فيها من يكبر شأنها ، ويلقى المحاضرات في ناديها . »

نقول — والعلم عند الله والاستاذ — إن الذي كون جمعية الشبان المسلمين اعضاء من الحزب الوطني حزب الاسلام والمسلمين ، فاراد ان يعارضهم اعضاء من الوفد سياسياً (بجمعية الشبان المصريين) ولقد كشف لنا الاستاذ عن سر من الاسراء الخفية التي احتجبت وراء هذه الدعوة ، فظهر لنا الوفد في ثوبه الصحيح . وعلى رأسه الاستاذ النحاس المصلى الصائم الراكع الساجد القانت القائم الليل واطراف النهار . فللاستاذ من الامة الشكر على كل حال .

وبعد ان مضى الاستاذ في مقارنة طويلة عريضة بين تجديد المجددين في أوروبا وتجديد الملحدون في مصر والشرق ، اثبت هذه الالفاظ الذهبية التي هي جديرة بان يحفظها عن ظهر قلب كل متعلم لتكون له في ادب المناقشة مقياساً ، وللاستزادة من علم الاستاذ نبراساً .

« واما ملاحظة بلادنا ودعاة الكفر والاباحة فيها ، فالتجديد الذي يدعون اليه هو هدم كل ما يربط الامة ويشد ازرها ، ويجمع كلمتها ، ويهذب اخلاقها من روابط الدين ، والمحافظة على العرض ، ويسمون الكفر والفجور واباحة الاعراض تجديداً طريفاً ، ومدنية وتقدماً وترقياً ، ويسمون ما يقابل ذلك من التقوى والعفة والصيانة قديماً بالياً ، وقد استشرى عبثهم وفسادهم وعظم خطرهم بكثرة الجرائد والمجلات التي

ينفثون فيها سمومهم، على صغر شأنهم، وسوء سيرتهم الشاف عن خبث سريرتهم، فانه لا مزية لاحد منهم في علم نافع، ولا عمل صالح، وانما هي خلاصة الالفاظ التي وافقوا فيها اهواء كبار الفساق وصغار الاحداث، وأن اهل الرأي والبصيرة عندنا يحزمون بان زعزعة العقائد وفساد الاعراض وإباحة النساء يناط بفساد اكثر الجرائد والمجلات،... وهكذا والله تكون اخلاق المتأدين بأدب القرآن الكريم، لا كل همار مشاء بنعيم، مناع للخير معتدائهم، عتل بعد ذلك زعيم، من ملاحظة هذا العصر.

غير ان الاستاذ— نفعا الله بعله وأدبه — قد نسي أن من أولئك الملاحظة فئة تتعمم وتلبس الجبة والقفطان، وتمنطق باحزمة الخبز والديباج، وتبالغ في تكبير العمامة حتى يصير عند حد قول حافظ — كالبرج لكن فوق تل نفاق — مبالغة في الاثم والعدوان واخفاء لأمرها ان يعرف، وسرها ان يكشف، فتحارب الدين باسم الدين، وتقاوم الاسلام باسم الاسلام، سرّاً لا علناً، واستخفاء لا جهراً، وهؤلاء والله يا سيدي الاستاذ لاكثر شراً، وألام نفساً، وأشد فساداً، وأعظم إثماً، عليهم وعلى الملاحظة المجدين اللعنة الأبدية.

واظن ان الاستاذ لا يزال يذكر منهم شيخاً، معهما ربة القوام ايض الوجه عريض المنكبين يمشى الهوينا — كما يمشى الوجى الوجل — لا خشية من الله، ولكن خيلاء واسرافاً، وكان يجلس الى طاولة معروفة وفي مكان معروف بقهوة سبلند بار، وهي لا تزال قائمة الى اليوم، ومحلها منها لا يزال مسوداً بالخزى اعاذنا واعاذه الله، فاذا ما استوى في مجلسه اجتمع من حوله جماعة من المرد الوسماء، حتى اذا انتصف الليل قام ومعه منهم جمع، لا للمسجد ولا للمحراب، ولكن للذة مباشرها أو تباشره..

افلا تعتقد يا سيدي الاستاذ أن هذا الشيخ وأمثاله شر على الاسلام والمسلمين، من ملاحظة المجدين؟

وانى لارجو أن يوفقك الله في خطواتك السديدة، وان يزيدك من فضله، ان الفضل لله يهبه من يشاء، وهو العزيز الحميد.

٢ - مجلة المقتطف عدد يوليو سنة ١٩٢٩ من مقال تحت عنوان

« الله والعالم ، وهي خطبة مطوية للدكتور صروف

رحمه الله

والذين ذهبوا إلى معرض باريس رأوا هنالك آلات مختلفة الأشكال والصفات.
رأوا آلة تطحن القمح وتعجنه وتخزه ، وأخرى تبل التبغ وتقرمه وتنسقه ، وأخرى
تطبع الورق وتطويه وتخيظه إلى غير ذلك ، فذهلوا عن أنفسهم وقالوا ما أحكم
الانسان وما أعجب ما وصل اليه . ولو حاولت اقناعهم بأن هذه الآلات وجدت من
نفسها أى ان رقائق الحديد وورقات الخشب تجمعت وتركبت فصار بعضها عوارض
وبعضها مخارز وبعضها دواليب وبعضها أساطين إلى غير ذلك من الأجزاء المختلفة
الأقدار والهيئات ، ثم تركبت على أوضاع خاصة فتألفت منها تلك الآلات العجيبة ،
ثم أن هذه الآلات جذبت إليها الفحم من طبقات الأرض ، وأضرمت فيه النار
وملأت جوفها من مياه الينابيع فسخن الماء بحرارة النار فصار بخاراً ورفع الأساطين
التي فوقه فارتفعت وأدارت الدواليب الكثيرة وحركت الأدوات المختلفة فتسبب عنها
طحن القمح وعجن الطحين وخبز العجين وطبع الورق وبل التبغ الخ وقد جرى
كل ذلك ولم تدخل فيه يد الانسان — لو صرحت لهم بهذه النتيجة — لعدوك مجنوناً
أو هاذراً . بل من تراه يسلم بذلك وأى عقل يعتقد به ، سخيلاً كان أو ثقيلاً . أيمكن
أن توجد هذه الآلات من نفسها ؟ أيمكن أن تختار هذه الأوضاع بلا صانع قادر
على صنعها ؟ كذلك العقل والنقل لا يسلطان بذلك . العقل والنقل يرفضانه ، وإنى
لأرى التصديق بأن واحداً واحداً سبعة ، أيسر من أن المطبعة وجدت من نشء
الطبيعة ، والتصديق بأن واحداً واحداً سبعون أقرب من التصديق بأن الآلة البخارية
التي تسير السفن الكبيرة وتقضى بأكثر مصالح الانسان وجدت من نفسها ،

لكن ما هذه الآلات بالنسبة إلى أصغر الحيوانات التي لصغرها لا تراها العين
والتي لو جمع ألف حيوان منها معاً ، ما بلغ جرمها كلها جرم الخردلة الصغيرة ؟ ما هذه الآلات
بالنسبة إلى العفن الذى نراه مذروراً كالرماد الأخضر ؟ وإذا نظرنا إليه بالميكروسكوب
رأيناه غابات من الأشجار وكلها تحيا وتنمو على صرورة تصرت عقول البشر عن
إدراك كنهها ؟ من يتحاسر فيقول إن هذه الحيوانات وهذه النباتات وجدت هكذا

من نشء الطبيعة ؟ ولكن ماهذا بالنسبة إلى الحيوانات الكبيرة ذات الأيدي والأرجل والعيون والآذان ؟ أين آلات البشر من جسد الإنسان ؟ من عينه ذات الطبقات العديدة والتراكيب العجيبة ، فلو جمعت كل آلات البشر شرقاً وغرباً ما ساوت كلها عيناً واحدة في الاتقان والغرابة . ولو اجتمع كل علماء الأرض وصناعها وأرادوا أن يصنعوا عيناً باصرة كعين البعوضة ، وصردوا عمرهم كله في هذا العمل إلى ان حانت منبتهم لجتهم في آخر حياتهم ، وقد رموا آلاتهم في النار وقالوا كلهم عجزنا عجزنا ؟ . وقد ذكرتني هذه القطعة بأخرى اثبتتها العلامة داروين في الفصل السادس من كتابه أصل الأنواع أثرت نقلها هنا اتماماً للفائدة ودليلاً ندحض مزاعم الذين يقولون ان النشوء لزام الاحاد (١)

وليس من الهين في هذا المقام أن تنسكب مقارنة نضعها بين العين والمنظار المقرب للاشباح — تلسكوب — فانتا نعلم أن هذه الآلة لم تصل إلى ما هي عليه من الكمال إلا بعد أن أفنى كثير ممن نعتبرهم صفوة العقول البشرية جهودهم في سبيل تحسينه . ونحن بالطبع مسوقون إلى القول بأن العين قد تكونت بطريقة مشابهة لتلك الطريقة . ولكن ألا يكون ذلك القول محض اعتبار تصوري ؟ وهل لنا أن نخطر بقولنا خطرة من الظن بأن الخالق العظيم يدبر الكائنات بقوة عقلية مشابهة لقوة الانسان ؟ أما إذا لم يكن بد مما ليس منه بد ، ومضيئاً في مقارنة العين بآلة مبصرة ، أنبغى لنا أن نكون بقوة الوهم صورة طبقات متراكمة من أنسجة مشفة ، بين بعضها وبعض مادة سائلة ؛ ومن وراء ذلك جهاز عصبي كاشف للضوء حساس له ، ثم نفرض من بعدهذا كله أن كل جزء من أجزاء هذه الطبقات ماض في سبيل التغير من حيث ثقله النوعي وكثافته ، مستمر فيه ببطء عظيم ، متجهة تلك الأجزاء نحو التمايز بالانفصال بعضها عن بعض إلى طبقات مستقلة يختلف ثقلها النوعي كما تختلف كثافتها ، ثم تأخذ أوضاعاً في أبعاد متناسبة ! في حين أن سطح هذه الطبقات يكون معنأ في سبيل التغير من حيث الصورة والشكل . ثم نقول إن من وراء ذلك كله « قوة » تمثلها لأنفسنا باصطلاحات نضعها كالانتخاب الطبيعي أو بقاء الأصلح ، ملاحظة بعين المجاز كل تحسين أو تهذيب

(١) راجع ص ٢٥٥ من الجزء الثاني من أصل الأنواع (الطبعة العربية)

وصفي يطرأ على تلك الطبقات المشقة ، ماضية ، حين تأثر هذه الطبقات بمختلف الظروف التي تحوط بها ، في الاحتفاظ بكل شكل من أشكال التغير . إيا كانت وسيلته ، ومهما كانت درجته ، متى كان من شأنه الكشف عن الأشباح بصورة أكثر دقة . ومن ثم نفرض أن كل حالة تتمشى فيها تلك الآلة نحو الكمال قد تتكرر مليوناً من المرات تبقى في كل مرة منها محتفظة بكيانها زماناً ثم تزول ، بعد أن يجد في التراكم العضوية غيرها أقرب إلى الكمال رحمة . فإن التغير في الأجسام الحية ينتج ارتقاءً ضئيلاً يتضاعف أثره جيلاً بعد جيل إلى ما لا نهاية له ، في حين أن الانتخاب الطبيعي يكون إذ ذاك مجدداً دائماً على الاحتفاظ بكل تهذيب يحدث بعين لا تأخذها سنة وهمة لا يعرفها التكلال . دع تلك القوة تؤثر في همودها وسكونها تأثيرها الدائم مليوناً من السنين ، متخذة في كل سنة ملايين من أفراد العضويات المختلفة موضعاً تبرز فيه نتائجها ، أفلا نعتقد بعد هذا أن آلة مبصرة حية من المستطاع أن تكون قد استحدثت على مر العصور بحيث تكون نسبة الفراق بينها وبين العدسة الزجاجية ، كنسبة الفرق بين تدبير القوة الخالقة العظيمة ، وبين الصناعات البشرية ؟

٣ — عن المقتطف شهر يوليو سنة ١٩٢٩ من مقال بقلم
الدكتور أبو شادي تحت عنوان في سبيل العربية — ما بين
الجمود والأصلاح .

ولعل من خير الإنسانية أن تكون لها لغة واحدة ، ولعل اللغة العالمية التي سوف تكون لها الغلبة هي الإنجليزية — لسان العالم الجديد : مقرأسمى حضارة عرفها البشر ، ولسان الإمبراطورية الإنجليزية ، ولسان التجارة الدولية ، ولسان الثقافة والتعامل في شعوب ناهضة : كثيرة كالإيابان والصين والهند . يد أنه من خيال الخيال أن تتصور إمكان القضاء البات على اللغات القومية مادامت هذه اللغات وليدة معارف وحضارات وعقائد مججلة . وغاية ما يسوغ لنا العقل تصوره إمكان ذبوع لغة ظاهرة ذبوعاً كافياً لتكون اللسان الأول للحضارة العالمية ، فيصبح تعلمها فرضاً على جميع الشعوب المتحضرة ، دون أن يتعارض ذلك وواجبات تلك الشعوب نحو لغاتها الخاصة بها .

وقد ذكرت آنفاً أن اللغة الإنجليزية مرشحة قبل سواها (ولا أستثنى الفرنسية) لتبوء هذه المكانة ، وربما نالتها قبل شروق القرن التالى . وقد أصبحت الإنجليزية بما تستوعبه من شتى العلوم والفنون والآداب كنزاً وفيراً لانفس معارف الأمم ، وصار التبحر فيها مغنياً فى معظم الأحوال عن الألسنة الأوروبية الأخرى . ولكنه برغم ذلك لم يعرف قديماً ولا حديثاً عن أمة من الأمم التابعة للتاج البريطانى انها استغنت بهذه اللغة السهلة المرنّة الزاخرة بالعلوم والفنون والآداب ، عن لسانها القومى الرؤوم . ذلك لأنها تحس أنه وحده مستودع أسرارها وأحلامها وآلامها .

هذا مثل نسوقه لنسوغ به تعلقنا (لامن جانب العاطفة وحدها ، بل من جانب المنطق أيضاً) بلساننا القومى ، دون أن تكون فى هذا التعلق مسكة من التعصب المسين ولا أية مضادة لنزعتنا العالمية . وما من شك فى أن اللغة العربية — وريثة الكثير من المانيات القديمة ، — قد برهنت على استطاعتها أن تتكيف فى أقطار شتى قلبها وتعايرها ذلك التكيف العجيب الذى يجعل حتى من صورتها الفصحى السنة ومية متعددة لا فارق بينها إلا فى ما يسبغه عليها الذوق المحلى من ألوان التعبير وما يكسبها من جرس خاص ترتاح اليه كل أمة تتخذها لسانها القومى .

٤- مجلة الهلال عدد شهر يوليو سنة ١٩٢٩ من مقال تحت عنوان التنمية أو أكل لحوم البشر (كانبيا لزم) بقلم محمود سامى .

الأيحاء قوة نفسية عجيبة تعرف بمظاهرها ويتعذر تعليل أسبابها . فالذى يعيش فى أرض تكثر فيها الأفاعى ويعتاد قتل الكثير منها يصبح قتل الأفاعى فى نفسه أمراً يدفعه اليه الأيحاء . والجندي الذى يشترك فى حرب تطول مداها يكون أرغب فى القتل من غيره . ومن يفكر فى ارتكاب جريمة . لا يرتكبها بمجرد التفكير فيها ، بل ينفذها عندما يبلغ به التفكير فيها درجة الأيحاء وقد يرتكبها ببساطة طبيعية ولو كانت أشنع الجرائم .

وكاتب هذا المقال يعلل التنمية كما دعاها — بانها شئ تدفع اليه الضرورة وما ضرورة ذلك الا الجوع . يقول :

و قد تدفع الظروف بالمرء إلى حيث يتعذر عليه وجود الطعام فيدفع الجوع إلى أن يقتات بأول شيء يصادفه . والجوع لا يعرف الرحمة ونداء المعدة تحتفى معه العواطف وتفر منه حتى إنسانية بنى آدم . — وعلى هذه الوتيرة يسير في تعليل أكل لحوم البشر والاعتیاد عليه . في حين أن الأرجح أن لا سبب لهذه الظاهرة إلا الإيحاء الذي تخلقه العادة أولاً ثم يصير من بعد ذلك شيئاً ضرورياً من مقومات الحياة ، فيلوح لمن لم يرجع إلى أصله كأنه شيء طبيعي تدفع إليه دوافع طبيعية

٥ - مجلة المشرق التي تصدرها إدارة آباء كلية القديس يوسف

عدد يولييه — ١٩٢٩ — من مقال بعنوان « قس بن

ساعده » — ماذا نعرف عنه — بقلم ميشيل سليم كعيد

من خطب قس بن ساعده

« أيها الناس : اسمعوا وعوا ، واذا وعيتم فانتفعوا . أنه من عاش مات ، ومن مات فات . وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات . وجمع وشتات ، وآيات بعد آيات . ألا إن أبلغ العظمت السير في الفلوات . والنظر إلى محل الأموات . إن في السماء لخبراً ، وأن في الأرض لعبراً . ولا شك عندي مطلقاً في أن قوله « ألا أن أبلغ العظمت السير في الفلوات والنظر إلى محل الأموات » — مدسوسة على قس ، فانها من أول الخطبة « كالبقة الخراب في مصور الجغرافية » كما يقول الاستاذ صادق الرافعي . وإني لأذكر مكان هذه القطعة قطعة أخرى حفظناها ونحن في المدرسة هي أكثر اتساقاً وللب الخطبة من هذا الكلام البور وفيها يقول « يا معشر إباد ، أين الآباء والأجداد ، وأين الفراعنة الشداد . أين من بنى وشيد ، واثق ونجد . أكلهم الدهر بكلكله ، ومزقهم بتطاولة ، فتلك أجسامهم بالية ، ويوتهم خاوية . عمرتها الذئاب العاوية ،

ويزيد بعض النساخ على هذه الخطبة قوله

« أقسم قس قسما : لا خائناً فيه ولا آثماً . إن لله ديناً وأحب إليه من دينكم الذي أتم عليه ، ونبياً قد آن أوانه ، وأظلم إبانته . فطوبى لمن آمن به فهداه ، وويل لمن خالفه وعصاه . »

ومنزلة هذه القطعة من الانتحال أرجح عندي من منزلة الأولى
ثم أنشأ يقول :

في الزاهبين الأولى ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للبوت ليس لها مصادر
ورأيت قوى نحوها يمضي الأصغر والأكبر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقي غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر
ومن خطب قس النفيسة :

« أيها الناس ! شارفوا ببصاركم في كر الجديدين ثم ارجعوها كليله عند بلوغ
الآمل فان الماضي عظة للباقي (١) ولا تجعلوا الغرور سبيل الفخر فتقطع حجتكم
في موقف الله سائلكم فيه ومحاسبكم على ما أسفلكم . أيها الناس ! أمس شاهد فاحذروه
واليوم مؤدب فاعرفوه ، وغداً رسول فاعلموه . وكونوا على حذر ، من هجوم القدر ،
فان أعمالكم تطلق أبدانكم والصراط ميدان يكثُر فيه العثار فالسالم نالِج والغابر في النار ،
ولم يعرف أن قساً وصف ما بعد الموت ولكن أمية بن أبي الصلت معاصر قس ومن
فرسان أباد المعدودين له ما يأتي

فكل معمر لا بد يوماً وذى دنيا ، يصير الى الزوال
ويبقى بعد ، جدته ويلى سوى الباقي المقدس ذى الجلال
وسيق المجرمون وهم عراة الى ذات المقامع والنكال
فنادوا : ويلنا ويلا عظيما وعجوا في سلاسلها الطوال
فيلسوا ميتين فيستريحوا وكلهم بحر النار صال
وحل المتقون بدار صدق وعيش ناعم تحت الظلال
لهم ما يشتهون وما تمنوا من الأفراح فيها والكمال

وعندي أن البيت الأخير في غاية الضعف لا يتسق وبقية القصيدة مطلقاً . وقس
أول من أفتح الخطابة بكلمة « أما بعد » . ومن مأثور قوله :

« من فاته حسب نفسه ، لم ينفعه حسب » .
 « البينة على المدعى ، واليمين على ما أنكر » .
 ومن خطبه الذائعة قوله :

« أيها الأشهاد ! أين ثمود وعاد ، أين الآباء والأجداد . أين ذهب أبرة ذوالمنار ،
 وعمرو ذو الأذعار ؟ هل تدرون ما صار إليه عبادة الفتاح ، وأذينة الصباح ، وجذيمة
 الوضاح ؟ غزوا فقهروا ، ونهوا وأمروا . وجددوا المصانع والآثار ، وجدولوا الأنهار ،
 وغرسوا الأشجار ، . واستخدموا الليل والنهار . فهجمت الآجال . دون الآمال . ألا
 وأن كل شيء إلى الزوال ، .
 ثم أنشأ يقول :

قد كنت أسمع بالزمان ولا أرى	ان الزمان يطبق تفت جناحي
فأراه أسرع في حتى أصبحت	يضاً متون عوارضى وصفاحي
وأنا الكبير لنسبة في قومه	هيات ! كم ناسمت من أرواح
صاغت ذا جدن وأدرك مولدى	شمر بن عمرو ، يتقي بالراح
والقيل ذو وزن رأيت محله	بالقهر بين جنادل وصفاح
فتك الزمان بملك حمير فتكة	تسعى بكل عشية وصباح
أودى أبو كرب ، وعمرو قبله	وأباد ملك أذينة الصباح (١)

وغدا بابرهة المنار فأصبحت أيامه ، مسلوبة الأصباح

لاتمس في شك المنون ، أما ترى	أيامه مشهورة الايضاح
لأن آمن مكر الزمان ، فإنه	أردى الزمان بشعر الوضاح
برك الزمان على بن هاتك عرشه	وعلى أذينة ، سالب الأنواح
أفبعد أملاك مضوا من حمير	يرجي الفلاح ، ولات حين فلاح

(١) في الأصل الذى نشرته المشرق يقول « أذينة الوضاح ، وهو خطأ واضح
 حتى من سياق الخطبة ذاتها .

من ذا تصافق كفه كف الردي يشرى التقى ، عن يعة الأرواح

يقول كاتب هذا المقال

وما يلصق بقس ، بعض كلمات حكمة زعموا أنه قالها لقيصر حين وفد عليه .
مرة فقال له قيصر :

ما أفضل العلم ؟

— معرفة الرجل نفسه .

ما أفضل العقل ؟

— وقوف المرء عند علمه .

ما أفضل الأدب ؟

— استبقاء الرجل ماء وجهه

ما أفضل المروءة ؟

— قلة رغبة المرء في اخلاف وعده .

ما أفضل المال ؟

— ما قضى به الحق

يقول الكاتب — إنها كلمات على جانب عظيم من الحكمة والعقل . كلمات حوت
أثمن النصائح ، لا نظن أن قساً قائلها ، ولا شك أن العرب اتهموه (١) بهالما أطلعوا
على آداب الاغريق ، فأراد الزعم بوجود حكيم عندهم يماثل ديوجينيس في اجابة الرد
الحكيم ، ولم يجدوا مرتعاً أخصب من قس ، فألوا هذه وكفنوه بها ، (٢)
ولست أدري أى دليل يستند اليه الكاتب في مذهبه هذا . ولا نظن أن العرب
في جاهليتهم يعجزون عن مثل هذه الأجوبة ، وكان منهم مثال قس ، اسقف نجران ،
وزهير بن أبي سلى وسجبان وائل والمهلل والمقنع الكندى وامرئ القيس وأعشى
ميمون والحارث بن حلزة اليشكري وطرفة العبد وغيرهم . فلماذا تكون هذه الأقوال
الحكيمة لليونان ولا تكون للعرب ؟

(١) أسخف التعبيرات وأبعدها عن المقصود (٢) يا حفيظ يا مغيث !